آية الإبلاغ

٥٣

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الشؤون الفكرية والثقافية

آية الإبلاغ

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

سورة المائدة: الآية ٦٧

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ولا سيما بقية الله في الأرضين عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره وأتباعه.

تمرّ علينا في الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام ذكرى يوم وبيعة وعيد الغدير المبارك وهو مناسبة للفرح والسرور والتهاني والتبريكات بمناسبة إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية ورضا الله سبحانه بالإسلام ديناً للمسلمين، وهوَ يوم يأس الكافرين من الدين، وكل وصف من هذه الأوصاف يستحق أن يكون عيداً فكيف إذا اجتمعت كلها في يوم واحد.. وعلى شيعة أهل البيت عليهم السلام أن يبتعدوا كل الابتعاد في غمرة هذا الفرح والاحتفال عن كل مظهر من مظاهر معصية المولى سبحانه فلا يمكن إطاعة الله من حيث يعصى بل على الموالين أن يملأوا هذا اليوم طاعة وقد ورد استحباب صيام هذا اليوم وزيارة أمير المؤمنين عليه السلام تجديداً لتلك البيعة الواجبة في رقاب جميع خلق الله من الأولين والآخرين، ومن أهم ما يمكن أن نملأ فيه ذلك اليوم أن يعرف الإنسان الموالي حقيقة ذلك اليوم بالدليل والبرهان؛ إنه يوم تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام من قِبل رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمر الله سبحانه وتعالى خليفة للمسلمين وأمر الأمة ببيعته وفرضها عليهم كما فرضَ

الصلاة والصوم والزكاة والحج بل أكثر من ذلك كما فرض توحيد الله والمعاد إليه ونبوة نبيه.

وقد خلّد القرآن الكريم هذه الواقعة بثلاث آيات من القرآن الكريم؛ وأول تلك الآيات هيَ الآية التي تحث رسول الله صلى الله عليه وآله على تبليغ هذه الولاية بما يشبه التهديد وجعل عدم تبليغ هذه الولاية عدم تبليغ كل الرسالة بمعنى أن الولاية في كفة وباقي الرسالة في أخرى. وقد ضمن عصمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من الناس الذين يقفون ضد تبليغها، وثانيها هيَ توصيف ذلك اليوم المبارك بالأوصاف المتقدمة، وثالثها يتحدث عن موضوع من ينكر هذه الولاية بعد علمه بصدورها من المولى مع أنه يلتزم بالصلاة والصوم والحج وغيرها، وهذا التنوع في تخليد الواقعة يدل على أهميتها البالغة بحيث تحولت إلى آيات تُتْلى آناء الليل وأطراف النهار.

وفي هذا البحث المتواضع محاولة للوقوف على الآية الأولى من تلك الآيات عسى أن نوفق لبحث الثانية والثالثة في مناسبات أخرى إن شاء الله تعالى.

نسأله سبحانه إن يجعلنا من المتمسكين بولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسائرين على نهج النبي محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

مع علماء الإمامية

أجمع علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومفسروها على أن آية «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك» نزلت في شأنٍ خاص وأمرٍ محدد وهو خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته، فعبارة- ما أنزل إليك من ربك - هو أولاً أمر إلهي لا دخل للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ولا غيره فيه، وثانياً لا يمكن للرسول صلى الله عليه وآله أن لا يبلغ- ومن شأنه ووظيفته التبليغ فهو عبد مأمور بالتبليغ- وهذه الخلافة لها من الأهمية البالغة بحيث إذا لم تُبَلغ فكأن أتعاب النبي ستذهب سدى، وهذا ما نعرفه من قوله عز وجل: «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»، نفهم من هذه الآية الكريمة أن هناك رسالة قد بلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله وهناك إزاءها أمر آخر على جانب كبير من الأهمية - وهو الخلافة - لا بد من الإعلان عنه والتبليغ به، وإلا فسيعتبر الرسول صلى الله عليه وآله لم يبلغ الرسالة قاطبة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً يتبين لنا أن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام تعدل كل ما بلّغ الرسول صلى الله عليه وآله عن الله سبحانه وتعالى، بل تزيد عليه لأن عدم تبليغ الأمر الإلهي الأخير سيعني عدم تبليغ كل الرسالة التي تشمل أموراً كثيرة، مما يدل على أهمية تلك الخلافة.

لقد استدعى الأمر لذلك مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله بما يشبه التهديد أولاً، وضمان عصمته ثانياً - وضمان العصمة من الأعداء لا من الذنوب - يدل دلالة واضحة على أن الله يعلم بوجود أناس لا يريدون أن يتم هذا التبليغ أولاً ولا يتم تنفيذه ثانياً، وقد أيد الله سبحانه تخوف الرسول صلى الله عليه وآله هذا بضمان عصمته صلى الله عليه وآله أولاً ووعده بأن الكافرين لا يصلون إلى أهدافهم ثانياً، والكافرون هنا هم من رفض هذا الأمر الإلهي ومَثَله في القرآن.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وقد تنبه المفسرون لذلك ومنهم محمد الأمين الشنقيطي حيث ذكر في قوله تعالى:

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

بعد قوله - ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا- يدل على أن من لم يحج كافر والله غني عنه»[2]. ومن عجيب خطابات القرآن الكريم أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يُخاطب بهذا اللقب الشريف إلا في هذه الآية وفي آية أخرى فقط وهي قوله تعالى:

(١) آل عمران/آية ٩٧.

(٢) أضواء البيان/ ٢٣٦/١.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[1].

والملاحظ في هذه الآية المباركة إن الله سبحانه يقدم الذين قالوا (آمنا بأفواههم) على أعداء الإسلام الخارجيين – اليهود- وقد وصفهم القرآن بأنهم يسارعون في الكفر، والملاحظ أنهم لا يسارعون «إلى الكفر» بل «في الكفر» فهم ليسوا من أهل الإيمان حتى يخرجوا منه إلى الكفر، بل إنهم ليسوا من أهل الإيمان أصلا وخطرهم مقدم على خطر اليهود بل لم يبق لليهود خاصة وللكافرين عامة خطر في أواخر عهد النبي ﷺ حتى يخافهم ويحذرهم ويؤخر التبليغ، وقبل زمن نزول الآية سقطت قلاع اليهود فقتل من قتل وأجلي من أجلي ودفع بعضهم ا لجزية وسلم أرضه طوعا، وانكسرت شوكتهم ورُدّ مكرهم إلى نحرهم، لكن بقي هناك خطر داخلي أشارت له هذه الآية وآية إكمال الدين، وقد نزلت بعد الإعلان الرسمي لخلافة أمير المؤمنين عليه السلام في غدير خم وبيعته من قبل الأمة وقد وصفت الآية ذلك اليوم بعدة أوصاف منها ما يخص بحثنا:

(١) المائدة/آية ٤١.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[1]

فالخطر الخارجي قد انتهى وقد أخبرنا الله سبحانه بذلك لكنه سبحانه حذرنا من الخطر الداخلي بمعنى حذرنا من عدم الالتزام بالأمر الإلهي الذي أدى إلى يأس الكفار فإن عدم الالتزام بهذه الولاية سيجدد أمل الكافرين.

نماذج من مفسري مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

نموذج أول:

يقول السيد عبد الله شبر: «عن أهل البيت عليهم السلام وابن عباس وجابر إن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً فكان يخاف أن يشق على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه»[2]، ويفصّل أكثر في تفسيره الكبير، يقول: «روى الثعلبي والحسكاني وجماعة من العامة عن ابن عباس وجابر، إن الله أمر نبيه ﷺ أن ينصب علياً علماً للناس ويخبرهم بولايته، فتخوف أن يقولوا حابى ابن عمه وأن يشق ذلك على جماعة من أصحابه

(١) المائدة /آية ٣.

(٢) تفسير شبر/ ١٤٣.

فنزلت هذه الآية فأخذه بيده يوم غدير خم وقال: ألست أولى بكم من أنفسكم، قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، والرواية عن أهل البيت في ذلك متواترة»[1]، وقد ذكر قبل هذا ما نزل إليك وفي علي عليه السلام فعنهم عليهم السلام هكذا نزلت وأمثال هذه الرواية صارت سببا للطعن في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ونسبة التحريف لهذه المدرسة العريقة والواقع كما يقول الشيخ محمد جواد البلاغي: «إنما هو تفسير وبيان للمراد في وحي القرآن، بكون التفسير والبيان جاء به جبرائيل من عند الله بعنوان الوحي المطلق لا القرآن وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»[2]، ومن هذا نعرف أن المستند في هذا التفسير هو روايات متوافرة متواترة عن أهل البيت عليهم السلام وهم عِدل القرآن بل إخبارهم بأن هذه الآية نزلت مع تفسيرها هذا أولاً ونقل ذلك عن بعض علماء المسلمين أيضاً.

(١) الجوهر الثمين/ ١٩٧/٢.

(٢) آلاء الرحمن/ ٢٩/١.

نموذج ثانٍ:

يقول السيد محمد الشيرازي «أوصل إلى الناس ما أنزل إليك من ربك بالنسبة إلى نصب علي عليه السلام خليفة من بعدك عند منصرف النبي صلى الله عليه وآله من حجة الوداع (وإن لم تفعل) لم تبلغ، (ما بلغت رسالته) كأنك لم تؤد شيئاً من رسالة الله، أو المراد لم تؤد الرسالة التي كلفت بها، (والله يعصمك) يحفظك من الناس، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله يخاف من أذى المنافقين له إذا نصب علياً عليه السلام، (إن الله لا يهدي) لا يلطف بهم الالطاف الخاصة، (القوم الكافرين) الذين لا يقبلون رسالتك في هذا الأمر كما هو الشأن من لا يقبل سائر رسالاته»[1].

وفي تفسير آخر له ذكر أن مناسبة الآية هي استخلاف علي عليه السلام وأن ذلك مجمعٌ عليه بين المفسرين - والواضح أنه يقصد مفسري مدرسة أهل البيت عليهم السلام لأن غيرهم لم يجمعوا على ذلك كما سيمر علينا - ويشير السيد رحمه الله إلى نقطة في غاية الأهمية وهي الإشارة إلى أهمية الاستخلاف «لأن كل الرسالة رهن هذا التبليغ ذلك واضح إذا أن عدم الاستخلاف معناه ذهاب جميع الأتعاب سدى وقد آمنه الله سبحانه مما كان يخشى منه، فقال: والله يعصمك من الناس، أي يحفظك من الناس فلا يتمكنون من الفتنة والانقلاب والإيذاء مما كان يخشاه الرسول صلى الله عليه وآله وحين ذاك

(١) تبيين القرآن/١٣٢.

وعنـد منصرف الرسـول من حجة الوادع في وسـط الصحراء أمر بنصـب منبر وخطب خطبة طويلة بليغـة ثم أخذ بكف علي عليه السلام وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله»[1]، وقد أشـار السيد رحمه الله في آخر كلامه إلى وقوف النبي صلى الله عليه وآله وسط الصحراء ونصبه ودعائه وهي قرائن تدل على أهمية هذا الحدث.

وعلى كل حال فإن دعاء الرسـول صلى الله عليه وآله وهو دعاء مسـتجاب يخبر أولاً أن الأمـة ستنقسـم تجاه أمير المؤمنـين عليه السلام إلى فريقين وهذا يعـني أن الالتزام بأوامر الرسـول صلى الله عليه وآله لا يعم كل الأمة، فمنهم من يقـف موقف الولاء، وآخرون يقفون موقـف العداء، فدعا للفريق الأول إن يكـون الله وليّهـم، وللفريـق الثاني أن يكـون الله عدوهم، وبكلمة ثانية واضحة إن من تولّى علياً فالله وليه، ومن عادى علياً فالله عدوه، ونحسـب إن هـذه المرتبة«أن الله يوالي من يوالي عبده ويعـادي من يعادي عبـده» لن ينالها إلا الولـي المخلص من عباد الله، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أول الأولياء وأعظمهم وأكرمهم على الله، لكن الملاحظ أن العداء للنبي صلى الله عليه وآله لم يظهر إلا من ا لجهات المعلنة للعداء «وهم الكفار» ولم تظهر له عداوة ظاهرة من داخل الأمة، أمـا أمـير المؤمنين فكانت له عداوة ظاهرة مـن قِبَل كثير من أفراد الأمة رغم نهي النبي المصطفى صلى الله عليه وآله عن بغضه وتوجيه القلوب إلى محبته عليه السلام، حيث قال الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا علي أنت سـيد في

(١) تقريب القرآن/ ٦٦٨/١.

الدنيا وسيد في الآخرة حبيبك حبيبي وحبيبي حبيب الله وعدوك عـدوي وعدوي عدو الله، الويل لمـن أبغضك بعدي»[1]، بل أكثر من ذلـك في حديث آخر يقول صلى الله عليه وآله: «عـادى الله من عادى علياً»[2] وقد ورد مثـل هـذا التعبير بالنسـبة إلى عمـار بن ياسـر رضي الله عنه وهو قابل للانطباق على كل أولياء الله فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إن الله تعـالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[3]، وهذا يعني أن الرسـول الأكـرم صلى الله عليه وآله في تلك الأحاديث كان في مقـام بيان المصداق الأكمل لوليّ الله.

نموذج ثالث:

يقـول الشـيخ محمـد الصادقـي: «يا أيها الرسـول بلـغ الناس مؤكـداً ما أنـزل إليك من ربك مـن ولاية خاصة رسـالية تحافظ علـى اسـتمرارية رسـالتك ككل دون نفـس مـا أنـزل إليـك فإنـه هـراء فليكن «ما أنزل» حفيظا على«رسـالته» فليس إلا الخلافة المعصومة المستمرة بها هذه الرسالة السامية...»[4].

ويقصد الشـيخ وجوب اختلاف مضمون فعل الشـرط «ما أنزل إليـك مـن ربـك» مع مضمون جـزاء الشـرط«ما بلغت رسـالته»

(١) المستدرك/١٢٨/٣وصححه على شرط الشيخين.

(٢) أسد االغابة /١٩٤/٢.

(٣) التبصرة/ ١٠٠/٢.

(٤) البلاغ في تفسير القرآن/١٢٠.

ولولا هذا الاختلاف لكان معنى الآية إن لم تبلغ رسالة ربك فلم تبلغ رسالات ربك وهو لغو واضح أو على حد تعبير الشيخ «هراء» وقد التجأ مفسرون آخرون إلى الاعتذار عن ذلك ببيت من الشعر لا يشبه مضمونه مضمون الآية، وقد استفاض الشيخ في تفسير هذه الآية بتفسيره الكبير[1].

وقد استفاض الحديث عن هذه الآية في تفسير الميزان الطباطبائي ج٦ ص٤٢ وفي تفسير مواهب الرحمن للسيد السبزواري ج١١ ص٢٣٥ وفي تفسير الأمثل للشيخ ناصر الشيرازي ج٤ ص٢٣٥ ج٤ ص٨٣، وهؤلاء الأعلام الأربعة أجابوا عن كل الأسئلة التي من الممكن أن تطرح واستدلوا على ذلك بما لا مزيد عليه.

نموذج رابع:

يقول الشيخ محمد جواد مغنيه: «يدل أسلوب الخطاب مع النبي ﷺ أن الله سبحانه قد أمره بتبليغ أمر مهم للغاية، وأن النبي قد ضاق به ذرعا لأنه ثقيل على أنفس جماعة من الصحابة وذكر الرازي في سبب نزول هذه الآية وجوها منها أنها نزلت في فضل علي بن أبي طالب»[2] وسيمر بنا في بحوث لاحقة أن الفخر

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ج٩/ ص٩٥-١٣٧.

(٢) التفسير المبين/ ١٥١.

الرازي ذكر عشرة أسباب لنزول الآية وعاشرها هو نزولها في فضل علي عليه السلام على حد تعبيره لكن سنلاحظ أن هذا السبب العاشر هو رواية أما الأسباب السابقة عليه فهي مجرد آراء.

وللشيخ مغنية كلام آخر طويل في تفسير الآية بنفس هذا المضمون ويختم كلامه باعتراف صاحب المنار «أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نهتدي به ونوالي عليا المرتضى ونعادي من عاداه ونعد ذلك كموالاة رسول الله ﷺ ونؤمن بأن عترته ﷺ لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزل الله عليه، وأن الكتاب والعترة خليفتا الرسول، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير، فإذا جمعوا على أمر قبلناه واتبعناه وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول»[1]، ونحن نوافقه لكنا -يعلم الله- لم نجد أمراً واحداً تنازع فيه العترة، أو قال أحدهم غير مقالة الآخر حتى نرده إلى الكتاب والسنة إلا إذا كان معنى العترة عنده أوسع من الأئمة الاثني عشر، فيبقى الشق الأول من كلامه أنهم إذا أجمعوا على أمر قبلناه لأنهم لا يجتمعون على مفارقة الكتاب وهم عليهم السلام في غنى عن شهادة صاحب المنار وشهادتنا بعد أن شهد لهم رسول الله ﷺ بذلك فقال عن الكتاب والعترة: «أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2]، وهذا هو السبب الذي أدى إلى ذلك الإجماع من مفسري الشيعة مما نقلنا وممن لم ننقل وهو كثير لا يخرج

(١) الكاشف/ ٣/٩٩.

(٢) مسند احمد/ ٢٢/٢٢٦.

على هذا المضمون فليضع من أراد يده على أي تفسير لشيعة آل محمد سيجد هذا المضمون، والسبب هو أنهم رووا عن أئمتهم أنهم فسروا هذه الآية بهذا المعنى، ومن تلك الروايات الكثيرة التي رواها السيد هاشم البحراني في تفسير الآية: عن أبي ا لجارود قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام [يقول]: فرض الله عز وجل على العباد خمسا فأخذوا أربعا وتركوا واحدة، قلت: أتسميهن لي جُعلت فداك؟ فقال: الصلاة وكان الناس لا يدرون كيف يصلون فنزل جبرائيل عليه السلام وقال يا محمد أخبرهم بمواقيت صلاتهم ثم نزلت الزكاة فقال يا محمد أخبرهم عن زكاتهم مثل ما أخبرتهم عن صلاتهم ثم نزل الصوم فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان يوم عاشوراء بعث إلى من حوله من القرى فصاموا ذلك اليوم فنزل صوم شهر رمضان بين شعبان وشوال ثم نزل الحج فنزل جبرائيل عليه السلام فقال أخبرهم عن حجهم مثل ما أخبرتهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم ثم نزلت الولاية وإنما أتاه ذلك في يوم ا لجمعة بعرفة، أنزل الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، وكان كمال الدين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله:إن أمتي حديثو عهد با لجاهلية ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل ويقول قائل فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله عز وجل قبله أوعَدني إن لم أبلغ أن يعذبني، فنزلت «ياأيها الرسول بلغ ما أنزل من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن

الله لا يهدي القوم الكافرين» فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام فقال: يا أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي ألا وقد عمره الله تعالى ثم دعاه فأجابه، فأوشك أن أدعى فأجيب، وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنك بلغت ونصحت وأديت ما عليك فجزاك أفضل جزاء المرسلين، فقال: اللهم اشهد - ثلاث مرات - ثم قال: يا معشر المسلمين هذا وليكم من بعدي فليبلغ الشاهد منكم الغائب»[1].

وقد نقل هذا الحديث من كتاب الكافي للكليني ونقل ثلاثة عشر حديثاً من كتب أخرى وآخرها نقله عن كتاب كشف الغمة عن زربن عبد الله قال: «كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»[2]، وقد مر بنا في روايات نزولها هكذا «بلغ ما انزل إليك في علي»، ومر بنا توجيه الشيخ البلاغي ونفس هذا التوجيه تجده عند السيد الطباطبائي حيث يقول:«فان كثيرا مما وقع فيها من الآيات المحكية من قبيل التفسير وذكر معاني الآيات لا من حكاية متن الآية المحرفة، ويلحق بهذا الباب ما لا يحصى من الروايات المشيرة إلى أسباب النزول المعدودة من أخبار التحريف كالروايات التي تذكر هذه الآية هكذا «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك - في علي-» والآية نازلة

(١) البرهان/ ٣٣٥/٢.

(٢) كشف الغمة / ٣٢١/١.

بحقه، وما روي إن وفد بني تميم كانوا إذا قدموا على النبي ﷺ وقفوا على باب الحجرة ونادوه أن أخرج علينا فذكرت الآية فيها هكذا «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات – بنو تميم- أكثرهم لا يعقلون» فظن أن في الآية سقطا»[1]، ومثل هذه الزيادات والتي ليست من متن القرآن موجود مثلها في كتب جمهور المسلمين: «أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب»[2]، وهذه الزيادة من الصحابي ا لجليل ابن مسعود إشارة تفسيرية إلى الدور المهم والبارز الذي لعبه أمير المؤمنين عليه السلام في غزوة الخندق، وكان عليه السلام سببا مهماً في هزيمة المشركين وليس دليلا على وجود التحريف في القرآن عند راوي هذا الحديث فضلا عن الطائفة التي روت عنه ذلك.

نتائج:

وبعد.. فقد أكثرنا من الاستشهاد وما تركناه أكثر من هذا بكثير ولا يختلف هذا الكثير الذي لم ننقله عن القليل الذي نقلناه، والنتيجة من هذا كله هو:

(١) الميزان ج١٢ ص١١٣ -

(٢) الدر المنثور/ ١٤٧/٨.

١. أجمع شيعة أهل البيت عليهم السلام على نزول آية الإبلاغ في شأن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

٢. إن هذا التفسير ليس اجتهاداً بل مأخوذ من روايات عن عِدل القرآن وهم أهل البيت عليهم السلام، فالمسلمون ملزمون باتباع عِدل القرآن كما التزم شيعتهم بذلك.

٣. هذا المعنى مروي في طرق أخرى غير طريق أهل البيت عليهم السلام فالآخرون ملزمون باتباع هذه الروايات وستأتي.

٤. إن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام هي جزء من «ما أنزل الله» حكمها حكم الصلاة والصيام والزكاة وا لجهاد بل حكمها حكم توحيد الله ونبوة الأنبياء والاعتقاد باليوم الآخر، ولا نقول هذا الكلام جُزافا بل هي روايات عن الرسول الأكرم ﷺ في كتب جمهور المسلمين تنص على أن الرسول ﷺ قبل إبلاغهم بـ«من كنت مولاه فعلي مولاه» سألهم: «أليس تشهدون أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال:اللهم اشهد، ثم قال:يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا مولاه - يعنى علياً - اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، ثم قال: يا أيها الناس إني فرطكم وإنكم واردون على الحوض، حوض أعرض ما بين بُصرى وصنعاء فيه

عـدد النجوم قدحان من فضة، وإني سـائلكم حين تردون عليّ عن الثقلـين، فانظروا كيف تخلفوني فيهمـا.. الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل سـبب طرفه بيـد الله وطرفه بأيديكم فاستمسـكوا به لا تضلـوا ولا تبدلـوا، وعترتـي أهـل بيتي، فإنـه قد نبأنـي اللطيف الخبير إنهما لن ينقضيا حتى يردا على الحوض»[1].

خصائص وآثار «ما أنزل الله» في القرآن:

وما يترتب على هذه النتيجة هي إن الولاية لها جميع خصائص «ما انزل الله» وآثارها، وهو مفهوم واسـع له مصاديق كثيرة، وهي كثيرة نذكر بعضها ونذكر إن هذه الخصائص والآثار ليست بخاصة بالولاية لكن تشملها وتشمل غيرها مما أنزل الله:

١-إن ما أنزل من الله هو الحق:

قال تعالى:

﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾[2]

لأن الله سـبحانه هـو الحق فمـا يصدر عنه حـق، ويكفي لإثبات هذا الإنزال شهادته سبحانه بذلك:

(١) الصواعق المحرقة/ ١٠٩.

(٢) الرعد/آية ١.

﴿لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾[1].

وهناك شـهادة ثالثة بعد شهادة الله وشهادة ملائكته هي شهادة العلماء:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَ﴾[2]

ومقتضـى حقانية ما أنزل الله وشـهادة الشـهود بذلك أن يعلم كافة الناس هذا الحق، لكن ما حدث أن المشركين حجبهم عن ذلك تقليـد الآبـاء الجاهلين غـير المهتدين، وحجب قسـما من اليهود الحسـد، أن تنـزل النبـوة في غـير بني إسـرائيل، وآخريـن يرون أن امتيازاتهـم ومناصبهـم ومراتبهم الدنيويـة ومصالحهم تتقاطع مع الحق وغير ذلك من أسباب رفض الحق،

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾[3]

ومـن طبيعة الحق أنه يبقى وينتشـر ويثبت وطبيعة الباطل أنه زهوق، والمهم إن على العباد واجبات تجاه ما هو حق:

(١) النساء/آية ١٦٦.

(٢) سبأ/آية ٦.

(٣) الرعد/آية ١٩.

أ-عدم خلطه بالباطل وعدم كتمانه

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾[1]

ورد في التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام «خاطب الله بها قوماً من اليهود ولبسوا الحق بالباطل، بأن زعموا أن محمداً صلى الله عليه وآله نبي وإن علياً وصي ولكنهما يأتيان بعد وقتنا هذا بخمسمائة سنة»[2]. ومثل ذلك قول ابن تيمية اعترافاً منه بهذه الحقيقة: «وكثير من اليهود إذا أسلم يتشيع لأنه رأى في التوراة ذكر الاثني عشر فظن أن هؤلاء هم أولئك وليس الأمر كذلك»[3] وإذا كان الأمر ليس كما فهم اليهود إن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم المبشر بهم في التوراة فمن يكونون؟ بعد أن يقول من يظن أن هؤلاء الاثني عشر الذين تعتقد الرافضة إمامتهم فهو في غاية ا لجهل وأما غاية العلم عنده فعد اثني عشر منهم معاوية ويزيد اللذين بإمارتهم يكون عز الإسلام.

(١) البقرة/آية ٤٢.

(٢) التفسير/ ٥٨.

(٣) منهاج السنة /٢٤٢/٨.

ب - التواصي به فصفة الإنسان المستثنى من الخسران العام لجميع البشرية هو

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]

والملاحظ إن الصفتين الأوليتين هما صفتان على المستوى الفردي بينما الصفتان الآخريان هما على المستوى الاجتماعي، فالمجتمع يوصي بعضه بعضاً بالحق أولاً وبالصبر ثانياً، وينطبق ذلك على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الاستثناء في الآية فقال: «استثنى الله سبحانه أهل صفوته من خلقه حيث قال :« إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا» بولاية أمير المؤمنين عليه السلام « وعملوا الصالحات » أي أدوا الفرائض «وتواصوا بالحق » أي بالولاية «وتواصوا بالصبر » أي وَصوا ذراريهم ومن خلّفوا من بعدهم بها ، وبالصبر عليها»[2]، وذيل هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن درب الولاية، وهو طريق الحق، يحتاج إلى العمل الاجتماعي بالتواصي به أولاً وهو طريق محفوف بالمخاطر ويحتاج إلى الصبر بل يحتاج إلى أن يوصي بعضنا البعض الآخر بالصبر والثبات.

(١) العصر/آية ٣.

(٢) تفسير فرات الكوفي/ ٦٠٩.

٢- اتباع «ما أنزل الله» بعد معرفته :

قال تعالى:

﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ (١)

لاحظ أن القرآن في مقابل اتباع ما أنزل الله يذكر اتخاذ أولياء من دون الله، وهو لازم لعدم اتباع ما أنزل الله لأن العبد باتباعه ما أنزله عز وجل يدخل تحت ولاية الله سبحانه وتعالى، وهنا نقطة مهمة نشير إليها وهي أن أولياء من دون الله لا تنطبق على ولاية مَنْ أمر الله بولايتهم فهؤلاء أولياء بأمر الله سبحانه كما في آية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٢)

وكما في حديث الغدير المستفيض بين المسلمين بل المتواتر «وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة»(٣).

(١) الأعراف/آية ٣.

(٢) المائدة/آية ٥٤.

(٣) البداية والنهاية/ ٢٠٨/٥.

٣- الإيمان ب«ما أنزل الله»:

الإيمان هو شرط في دخول الجنة، ولا يتحقق هذا الدخول إلا بالإيمان بما أنزل الله، ونكران الولاية مصداق من مصاديق الكفر بما أنزل الله، يقول المولى سبحانه

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ (١)

وقد عاب القرآن على اليهود تبعيض إيمانهم فيؤمنون ببعض الكتاب وهو من «ما انزل الله»ويكفرون ببعض قال تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (٢)

وواضح أن الله سبحانه عندما يعيب قوماً بفعل فلا يرضاه لآخرين، فقد عاب الذين قَسّموا الآيات القرآنية أصنافا؛ فما كان ينفعهم قبلوه وما لا ينسجم مع أهوائهم ومطامعهم نبذوه، قال تعالى:

﴿الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٣)

(١) البقرة/آية ٢٨٥.

(٢) البقرة/آية ٨٥.

(٣) الحجر/آية ٩١.

فالنتيجة«إن التوجيهات الإلهية بلا شك تراعى فيها المصلحة العامة ومصلحة الأفراد بصورة خاصة، ولكن البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصية بحسب الظاهر والبعض الآخر على خلافها ومن خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه الله يُمحّص المؤمن الخالص من المدعي للإيمان، فالذي يقبل كل شيء نازل من الله ويسلم له حتى وإن كان ظاهره لا يتوافق مع مصلحته ويقول «كل من عند ربنا» ولا يجرؤ على تجزئة أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهية فذلك هو المؤمن حقا»[1]، والدليل على شمول هذا المعنى لبعض أفراد الأمة ممن يُحسبون على المسلمين الصنف الأول المنافقون الذين شهد القرآن بموقفهم تجاه ما أنزل الله

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[2]

والصنف الآخر هم جماعة أسماهم القرآن

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾

ومن عطفهم على المنافقين نعرف أنهم صنفان لا صنف واحد، والقرآن بعدما يصف الكفار بأنهم كرهوا ما أنزل الله يصف علاقة مرضى القلوب بالكفار

(١) تفسير الأمثل/ ١٥/٨.

(٢) النساء/آية٦١.

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[1]

وقصة ذلك الرجل الذي يرضى بالصلاة والزكاة و و... ولا يرضى بخلافة علي عليه السلام ويدعو الله سبحانه يمطر حجارة السماء وينزل عليه العذاب ويخلد ذلك في القرآن، وقد ذكر هذا الموقف من هذا الرجل في ثلاثين مصدر من مصادر أعلام جمهور المسلمين حسب تتبع العلامة الأميني»[2] [3]، وأكثر من ذلك أن هناك من المسلمين من يكره عليا عليه السلام، وقد اعترف بها ابن تيمية فقال: «إن الله قد أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودّا، وهذا وعد منه صادق ومعلوم إن الله جعل للصحابة في قلب كل مسلم لاسيما الخلفاء رضي الله عنهم لاسيما أبو بكر وعمر فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهما وكانوا خير القرون، ولم يكن كذلك علي فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه»[4].

لكنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعل حب علي عليه السلام وبغضه هما ميزان الإيمان أو النفاق فقد روى المسلمون عنه عليه السلام «عهد إليّ

(١) محمد/آية ٢٦.

(٢) انظر الغدير ج١ ص٢١٤

(٣) الغدير/ ٢١٤/١.

(٤) منهاج السنة/ ١٣٧/٧.

رسول الله ﷺ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»[1]، وقد روى إمام الحنابلة وابن تيمية منهم عن علي عن رسول الله ﷺ: أنه لا يبغضني إلا منافق ولا يحبني إلا مؤمن»[2].

٤- الإيمان ب«ما أُنزل إليك» أساس التقوى:

التقوى هي مدار سعادة الآخرة، بل سعادة الدنيا وميزان التفاضل والكرامة عند الله سبحانه؛ فلا يمكن الحصول عليها إلا بالإيمان بما أنزل الله، ومنه كما أسلفنا الولاية، فمن صفات المتقين التي ذكرت في أول سورة البقرة:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[3]

فيتكون القياس الآتي:

المتقون يؤمنون بما أنزل إليك

ومما أنزل الله الولاية

إذن المتقون يؤمنون بالولاية

(١) سنن النسائي /ج٨ /١٧٧.

(٢) مسند أحمد/ ١/ ٨٤.

(٣) البقرة/آية ٤.

ومما يؤكد ذلك الحديث المروي عن الرسول الأكرم ﷺ: «أوحي إلي في علي ثلاث، أنه سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين»[1]، وإمامة علي عليه السلام للمتقين «وهو جمع محلى بالألف واللام يدل على شمول هذه الإمامة لجميع المتقين»، وبكلمة واضحة إن كل تقي يكون إمامه علياً عليه السلام، وإذا استخدمنا طريقاً من طرق الاستدلال المباشر الذي يسمى في علم المنطق (عكس النقيض) تكون النتيجة ليس بتقي مَن لم يكن إمامه علياً عليه السلام، أما المذعن لهذه الإمامة وهي مصداق لـ«ما أنزل الله»، وأكثر من ذلك أن المتقين لهم درجة أكبر من الإيمان بما أنزل وهي الاعتقاد بخيرية المنزل:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[2]

٥- حرمة الكتمان لـ«ما أنزل الله»:

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ

(١) المستدرك/٣/١٣٩.

(٢) النحل/آية ٣٠.

مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والآية وإن كانت نازلة في اليهود وكتمانهم حقانية الرسالة لعلمهم الجازم بذلك، لكنها قابلة للانطباق على غيرهم، وبهذا اعتذر الصحابي أبو هريرة عن كثرة رواياته خلاف بقية الصحابة فقال: «إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله عز وجل ما حدّثت حديثاً ثم تلا

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ (١)

وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون» وقد استفاد ابن عبد البر من هذا الحديث أموراً:

١-إن الحديث عن رسول الله ﷺ حكمه حكم كتاب الله عز وجل المنزل.

٢- إظهار العلم ونشره وتعليمه.

(١) البقرة/آية ١٥٩.

٣- ملازمة العلماء والرضا باليسير للرغبة في العلم.

٤- الإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وكسبها»[١].

ونحن وإن وافقنا على بعض ذلك، لكن من الممكن أن نضيف نقاطاً أخرى:

١- إن جل مسلمي صدر الإسلام كانوا مشغولين عن طلب العلم.

٢- مرافقة هذا الراوي للرسول الأكرم ﷺ لم يكن لطلب العلم وإنما لشبع بطنه على حد قوله.

٣- استدلال هذا الصحابي بآية الكتمان، التي كان سبب نزولها كتمان اليهود، على مطلق حرمة كتمان ما أنزل الله سواء أصدر من اليهود أم من غيرهم، فلذلك أكثَرَ من الروايات، وسيمر علينا في بحث لاحق أنه كان يقول: أنه حفظ وعاءين تحدث بواحد وكتم الآخر خوفاً من قطع البلعوم.

وكمثال على الكتمان، روى أبو جرير الطبري حديث الدار في تأريخه بكل تفاصيله، ورجع في تفسيره لينقل قول رسول الله ﷺ: فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا»[٢]، بينما كان قد ذكر ما قاله رسول الله بعد كلمة أخي وأبدله هنا بـ «كذا وكذا» لكنه أبقى ما يدل عليه لأنه قال بعد ذلك فأسمعوا

(١) جامع بيان العلم/١/٤٦٤.

(٢) تفسير الطبري/ ١٩/٧٤.

لـه وأطيعوا فقام القوم يضحكـون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع، ويقينا أن مجرد كون الإمام علي عليه السلام أخا رسول الله صلى الله عليه وآله لا يكون سببا لأمر قومه بالطاعة وخاصة أنه صلى الله عليه وآله في مقام امتثال أمر الله سبحانه وتعالى..

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١)

فهـل مـن المعقـول أن يكون إنذار العشـيرة هو إن أخـا النبي صلى الله عليه وآله يجـب إطاعتـه والظاهر أن السـر كل السـر هـو في الكلمتين التي اسـتبدلت بـ «كذا وكذا».. وإذا رجعنا إلى تأريخ الطبري نجد تلك الكلمتـين «ووصيي وخليفتي فيكم»(٢)، وتبع ابن كثير الطبري في «كـذا وكذا» في تفسـيره وتأريخـه، أما محمد حسـنين هيكل فقد أثبـت الحديـث كامـلا في الطبعـة الأولى مـن كتابه حيـاة محمد ص١٠٤ وحذفت في الطبعات اللاحقة.

ولهـذا الحديث أهمية.. فإن تبليغ إمامة أمير المؤمنين عليه السلام جنبا إلى جنـب التوحيـد والنبـوة أولاً وقبل أن يبلغ أي شـيء من فروع الدين ثانيا «فلا بلّغ صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا زكاة ولا خمساً ولا ولا...الخ».

وفي اختـلاف يـوم الغديـر عن يـوم الـدار إن في الغدير الإعلان

(١) الشعراء/آية ٢١٤.

(٢) تأريخ الطبري/ ٦٤/٢.

الرسمي العام بالخلافة والإمامة وأخذ البيعة على ذلك.

ونعيـد ونكـرر مـرة بعد مـرة إن هـذه الخصائص والآثار ليسـت خاصة بـ «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بل هي عامة بكل «ما أنزل الله» والولاية هي مصداق من مصاديق هذا المفهوم الواسع فينتج وفقا لذلك.

١- إن ولاية أمير المؤمنين حق وواجبنا عدم خلطها وعدم كتمانها والتواصي بها.

٢- يجب اتباع هذه الولاية وهي شرط الإيمان والتقوى.

٣- حرمة كتمان هذه الولاية بعد معرفة أدلتها.

آراء أخرى:

لعل قائلاً يقول - وقد قيل ذلك - إن المسلمين غير ملزمين بهذا الـكلام مقدمـة ونتيجة، حتـى وإن قلتم روينا ذلـك عن أئمة أهل البيـت عليهم السلام، لا لعـدم قبول قول أهل البيت عليهم السلام بل لأنكم متهمون بالكـذب علـى أهـل البيـت؟ فلـو تيقنـا أن هـذا كلام أهـل البيت لاتبعناهم؟ وا لجواب:

أولاً: إننـا لا ننكر وجود كذابين ووضاعين كذبوا على الأئمة لكن

هذا ليس دليلاً على أن كل من روى عنهم عليهم السلام فهو كاذب كما كثرت الكذابة على جدهم صلى الله عليه وآله، لكن لا يعني ذلك أن نشطب على الحديث النبوي بحجة وجود الكذابين.

ثانيا: ما منعكم أنتم وأنتم أهل الصدق أن تنقلوا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد نقلتم عمن لا تستطيعون تفضيله عليهم، بل رويتم عن النواصب والخوارج.. ممن شهد الحديث النبوي بنفاقهم، ويكون نتيجة ذلك أن أهل الصدق انصرفوا عن أهل البيت، وغيرهم كذّب عليهم، وبذلك ضاع الثقل الثاني الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآله سبباً لهداية الأمة وعدم ضلالها.

ثالثاً: ماذا فعلتم بما ورد في كتبكم وعند علمائكم مما يشبه ما نقل عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المورد وغيره من الموارد؟ فلا يخلو مورد من موارد الاختلاف من شاهد في كتب علماء جمهور المسلمين، وقد استعرض الشيخ الأميني رحمه الله ثلاثين علماً من أعلام مدرسة الصحابة ذكروا أن هذه الآية نزلت في غدير خم [1]، وقد أعرضتم عن كل ذلك بلا سبب واضح وقدمتم عليهم غيرهم كما سيتضح، ومن هؤلاء الأعلام الثلاثين ما تجده عند الحافظ جلال الدين السيوطي الذي قيل في ترجمته «المسند المحقق المدقق صاحب المؤلفات الفائقة»[2]، «وأخرج ابن أبي حاتم

(١) الغدير/ ٢١٤/١.

(٢) الشذرات/ ج٥١/٨.

وابن مرديه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم في علي بن أبي طالب. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مرديه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك أن علياً مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»[1]، والرواية الثانية هنا تشبه ما مر في صفحة ١٦ من رواية في كتاب كشف الغمة عن زر بن عبد الله وبهذا يتفقون على أن هذه الزيادة كانت معهودة على ألسن القراء لكنها تفسير للقرآن لا متن للقرآن كما مر.

وقد ذكر النيسابوري ما ذكره السيوطي هنا «يا أيها الرسول بلغ، عن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب [رضي الله عنه وكرم الله وجه] يوم غدير خم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده وقال : من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فلقيه عمر وقال : هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي[الباقر]»[2]، والملاحظ في هذا النص تهنئة عمر، ولا يعقل إن عمر يهنىء علياً عليه السلام على

(١) الدر المنثور/ ٢٩٨/٢.

(٢) تفسير النيسابوري ١٨٨/٣.

أمر يتساوى فيه مع الآخرين «لزوم المحبة أو غيرها»، وخصوصية هذه الرواية أنها رواية عن أهل البيت عليهم السلام عن طرق غير الشيعة مع اتفاق الصحابة لهم في ذلك. وقد كان هذا الصحابي راوي الحديث داعية للولاية، فقد روى الحاكم الحسكاني عن أبي هارون العبدي قال: «كنت أرى رأي الخوارج لا رأي لي غيره حتى جلست إلى أبي سعيد الخدري فسمعته يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، فقال له رجل: يا أبا سعيد ما هذه الأربع التي عملوا بها؟ قال: الصلاة والزكاة والحج والصوم أعني صوم شهر رمضان، قال: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قال: وإنها مفترضة معهن؟ قال: نعم»[1]، ومع ذلك فإن مفسري جمهور المسلمين إذا ذكروا نزول هذه الآية في غدير خم وهم أقل القليل فإنهم يقولون أنها نزلت في فضل علي لا في خلافة علي، وهذا مقبول ويمكن مناقشته، لكن المشكلة إن أكثر المفسرين لم يلتفتوا إلى هذه الروايات أصلاً ولا ذكروها في تفاسيرهم على الرغم من أن بعض تلك التفاسير كبيرة جداً وإليكم نماذج:

١- لجنة من علماء الأزهر تقول: «يا أيها المرسل من الله أخبر الناس بكل ما أوحي إليك من ربك وادعهم إليه ولا تخش الأذى من أحد وإن لم تفعل فما بلغت رسالة الله لأنك كُلفت بتبليغ الجميع»[2].

(١) شواهد التنزيل ٢٥٧/١.

(٢) المنتخب/ ج٨/ ٥١.

٢- مجموعة أخرى «وهي سلفية» من أساتذة التفسير تقول: «يا أيها الرسول بلغ وحي الله الذي أنزل إليك من ربك وإن قصرت في البلاغ فكتمت منه شيئاً فإنك لم تبلغ رسالة ربك وقد بلغ صلى الله عليه وآله رسالة ربه كاملة»[1].

٣- ومنهم أبو بكر الجزائري، وهو واعظ ومدرس في المسجد النبوي الشريف: «بلغ ما أنزل إليك» من التوحيد والشرائع والأحكام «يعصمك» يحفظك حفظاً لا يصل إليك معه أحد بسوء»[2].

٤- وينسب إلى ابن عباس عكس الروايات السابقة عنه فنجده يفسر الشيء الذي أمر الرسول صلى الله عليه وآله بتبليغه:« من سب آلهتهم وعيب دينهم والقتال معهم والدعوة إلى الإسلام»[3].

٥- ويقول ابن عجيبة: «يا أيها الرسول بلغ» جميع «ما أنزل إليك» غير مراقب أحداً ولا خائف مكروهاً «وأن لم تفعل» بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئاً منه «فما بلغت رسالته» أي كأنك ما بلغت شيئاً من رسالة ربك لأن كتمان بعضها يخل بجميعها، كترك بعض أركان الصلاة»[4] ،

(١) الميسر ٢٤١/٢.

(٢) أيسر التفاسير/ ٣٦٤/١.

(٣) تنوير المقباس لابن عباس/ ١٢٧.

(٤) تفسير ابن عجيبة/ ٨٨/٢.

ومثله البيضاوي وغيرهم من هذه الشاكلة كثير، نعني أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى «ما أنزل الله» جميع ما أنزل الله والغريب إن بعض المفسرين لا يقف على معنى هذا الأمر النازل بل يقفز عليه ويشرح ما بعده مثل «أمَر تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه وشهد له بالامتثال في آيات متعددة»[1].

محاكمة الآراء:

كل هذه الآراء وكثير غيرها تشبهها لم يلتفت قائلوها إلى كون زمان نزول الآية وهو أواخر عهد النبي ﷺ، ينافي كل تلك الآراء، فلا يعقل أن الرسول ﷺ يُخاطب في أواخر عمره بتبليغ التوحيد لأنه ﷺ انطلق بدعوة التوحيد من أول يوم، أو أنه لم يبلغ الأحكام ولم يبلغ الشرائع، ويعني ذلك أنه ﷺ بعد عشرين سنة لم يبلغ شيئا بعد تلك السنوات الطويلة من التبليغ.. فأُمر بالتبليغ!، إلا أن يقال إن هذه الآية نزلت في أول الدعوة الإسلامية وقد أُمر فيها الرسول ﷺ بتبليغ جميع ما أنزل وهذا يعني إن الآية مكية، بل من أوائل ما أنزل من القرآن وقد أجاد ابن عاشور بالرد على ذلك بقوله: «فنحن بين احتمالين أحدهما أن تكون هذه الآية نزلت بسبب خاص اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء مما يثقل عليه تبليغه، وثانيهما أن تكون هذه الآية نزلت من قبل نزول

(١) أضواء البيان ٤٤٢/١.

هذه السورة، وهو الذي توطأت عليه أخبار في سبب نزولها فأما هذا الاحتمال الثاني فلا ينبغي اعتباره لاقتضائه أن تكون هذه الآية بقيت سنين غير ملحقة بسورة، ولا جائز أن تكون مقروءة بمفردها، وبذلك تندحض جميع الأخبار الواردة في أسباب النزول التي تذكر حوادث كلها حصلت في أزمان قبل نزول هذه السورة»[1]،

وهو بقوله هذا قد دحض روايات كثيرة يشم منها أنها نزلت في مكة أو بداية الهجرة، وكنماذج لذلك نذكر الآتي:

ذكر القرطبي: «قال ابن عباس: قال النبي ﷺ :لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية، وكان أبو طالب يرسل كل يوم مع رسول الله ﷺ رجالاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزل «والله يعصمك من الناس» فقال النبي ﷺ: يا عماه إن الله قد عصمني من ا لجن والإنس فلا أحتاج إلى من يحرسني، قلت وهذا يقتضي أن ذلك كان بمكة وإن الآية مكية، وليس كذلك، وقد تقدم إن هذه السورة مدنية بإجماع»[2].

وقد قال ابن كثير عن حديث حراسة أبي طالب بعد ان فرق بين المحبة الطبيعية والمحبة الشرعية!«وهذا حديث غريب وفيه نكارة

(١) . التحرير والتنوير٤/٢٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥/٦.

فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية»[1]، ويمكن أن يفهم القارىء لتفسيره عدم نزولها في حراسة سعد بن أبي وقاص الذي ارتضاه القرطبي وغيره أول قدوم النبي ﷺ للمدينة لأنه قال «الصحيح أن هذه الآية مدنية بل من أواخر ما نزل بها والله أعلم»[2]، وهناك روايات أجواؤها مكية لكنها تستبدل أبا طالب بالعباس عم النبي ﷺ «فقد أخرج ابن مردويه والضياء في مختاره عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ أي آية نزلت من السماء نزلت أشد عليك؟ فقال كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب أفناء الناس في الموسم فأنزل عليّ جبرئيل عليه السلام فقال:«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» قال: فقمت عند العقبة فناديت: يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي؟ ولكم الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة، قال عليه الصلاة والسلام فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمة ولا صبي إلا يرمون عليّ بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صابىء ،فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، قال النبي ﷺ اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه.

(١) تفسير ابن كثير/ ١٥٤/٣.

(٢) نفس المصدر.

قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون فيهم نزلت «إنك لا تهتدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»، هوى النبي ﷺ أبا طالب وشاء الله تعالى عباس بن عبد المطلب»[1]، وقد حاول الآلوسي أن يجمع بين هذه الأخبار المتضاربة فمال إلى تكرار نزول هذه الآية، ولم نر أحداً من المفسرين مال إلى هذا الرأي رغم أنهم أكثروا من الروايات حول عصمة الله لنبيه من أعدائه، وقد ذكر الطبري ثلاث عشرة رواية وهذه الروايات أو مثلها منتشرة في التفاسير.

ملاحظتان

١- إن أغلب الروايات تتحدث عن مقطع «والله يعصمك من الناس» ولا علاقة لها بأول الآية وهو أمر رسول الله ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، مثل حكاية الأعرابي الذي جاء ليقتل رسول الله ﷺ وسل السيف وارتعشت يده وسقط السيف منها وضرب رأسه بالشجرة وانتثر دماغه وبالتالي تتحدث عن عدم حاجة الرسول ﷺ بعد نزول الآية للحرس.

ومن الطرائف أن بعض الروايات تقول على لسان رسول الله ﷺ بعد إن يسهر ليلةً وتسأله زوجه عائشة عن ذلك «قال ألا رجل

(١) روح المعاني ٣٦٥/٣.

صالح يحرسني الليلة، قالت: بينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح، فقال من هذا؟ فقال سعد وحذيفة: جئنا لنحرسك فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه فنزلت «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة آدم وقال انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى»[1].

وانفرد إسماعيل حقي الحنفي برأيٍ لم نجده عند بقية المفسرين حيث يقول: «فكان عليه السلام يحرسه مائة من المهاجرين والأنصار يبيتون عنده ويخرجون معه خوفا من اليهود فلما نزل قوله تعالى «والله يعصمك من الناس» علم أن الله يحفظه من كيد اليهود وغيرهم، فقال: للمهاجرين والأنصار: انصرفوا إلى رحالكم فإن الله عصمني من اليهود، فكان ﷺ بعد ذلك يخرج وحده في أول الليل وعند السحر إلى أودية المدينة وحيثما شاء يعصمه الله مع كثرة أعدائه وقلة أعوانه»[2].

٢- إن معظم الروايات إن لم يكن كلها واردة عن غير المعصومين عليهم السلام ولا نعرف وجهاً لأن يلتزم المسلم بكلام غير المعصوم، ففي نص واحد ينقل ابن الجوزي عن خمسة، هم مجاهد ومقاتل وابن عباس وأبو هريرة وعائشة ولا تخلو من تنافٍ وتضارب»[3]، وإذا كان هذا النص من هذا المفسر ينسب الآراء لأهلها وهم غير معصومين،

(١) زاد المسير /٣٠٢/٢.

(٢) روح البيان/ ٢٩٥/٣.

(٣) انظر زاد الميسر/ ٢٤٠/٢.

فإن أبا حيان أكثر في تفسيره من كلمة «قيل»، فقد قال: «بعد ذكر حديث عن ابن عباس لما بعثني الله برسالة ضقت بها ذرعاً وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية « قيل هو أمر بتبليغ خاص... قيل أمر بتبليغ أمر زينب بنت جحش ونكاحها... وقيل بتبليغ ا لجهاد والحث عليه وإن لا يتركه لأجل أحد... قيل تبليغ معائب آلهتهم»[1]، ومثل هذه الـ«قيل» نجدها عند الثعلبي والبغوي وابن عادل في تفاسيرهم، وقد سبقهم محمد بن إدريس الشافعي بهذا فقال: «يقال والله أعلم إن أول ما أنزل عليه ﷺ «اقرا باسم ربك الذي خلق» ثم أنزل عليه بعدها لم يؤمر فيه بأن يدعو إليه المشركين فمرت لذلك مدة، ثم يقال أتاه جبرئيل عليه السلام عن الله عز وجل بأن يعلمهم نزول الوحي عليه ويدعوهم إلى الإيمان فكبر ذلك عليه وخاف التكذيب وأن يُتناول فنزل عليه»[2]، ويعلم القارئ الكريم إن الـ «قيل» والـ «يقال» أفعال فاعلها مجهول فنحن بين أقوال قائلها مجهول وأخرى قائلها معلوم لكنه ليس حجة بين المسلم وربه وبعض تلك المرويات التي تنسب إلى غير الحجة ليس فيها تفسير للآية بل استنتاج منها، مثل قول عائشة: «من زعم أن محمدا كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفرية»[3]، وقولها أيضاً «لو كان محمداً ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم الآية

(١) البحر المحيط/ ٤٧٩/٤.

(٢) معرفة السنن والآثار ٤٩٣/٦

(٣) الوسيط للزحيلي ٤٨١/١.

«وتخفي في نفسك والله أحق أن تخشاه»[1]، فهذان الأثران عن عائشة لا يتكلمان عن تأريخ نزول الآية وسبب نزولها وفيم نزلت وما هي العصمة ومن هم الناس وما هو الشيء المهم الذي إذا لم يبلغ فكأنما لم يبلغ شيئاً. وقد جمع الفخر الرازي -وهو من كبار مفسري القرآن الكريم- عشرة أسباب لنزول الآية «الأول أنها نزلت في قصة الرجم، الثاني نزلت في عيب اليهود، الثالث بعد آية التخيير، الرابع نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش، الخامس نزلت في الجهاد، السادس بعد آية «لا تسبوا الذين يدعون من دون الله »، السابع نزلت في حقوق المسلمين، الثامن في إعرابي أراد قتل النبي، التاسع لإزالة الهيبة من قريش واليهود والنصارى، العاشر نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب.. ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فلقيه عمر فقال هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي»[2]، والملاحظ أن الأسباب التسعة الأولى غير منسوبة إلى أحد ولكن السبب العاشر منسوب إلى صحابيين وإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام وهذا ما يرجح السبب العاشر على غيره، لكن الفخر الرازي لا يرجحه بل يحمله على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى واستفاد ذلك من السياق، لأن الآيات

(١) أيسر التفاسير/ ٧٣٧/١.

(٢) مفاتيح الغيب بتصرف/ ١١٣/٦.

السابقة واللاحقة تتحدث عن اليهود والنصارى وقد سكنت نفس سيد طنطاوي إلى رأي الرازي دون الأسباب العشرة التي ذكرها الرازي فقال: «الآية الكريمة ساقها الله تعالى لتثبيت النبي صلى الله عليه وآله وتقوية قلبه وأمره بالمضي في تبليغ رسالته دون خوف من أعدائه الذين حدثه عن مكرهم به وكراهتهم له حديثاً مستفيضاً وقد بشره في هذه الآية بأنه حافظه من مكرهم وعاصمه من كيدهم... ما أنزل إليك من ربك من الأوامر والنواهي والأحكام والآداب والأخبار دون إن تخشى أحداً إلا الله»[1]، والاستفادة من وحدة السياق القرآني حق، لكنه مبني على أن الآيات المراد تفسيرها ذات سياق واحد فعلا عند التنزيل، ومجرد كونها في المصحف كذلك لا يدل على ذلك، بل الأمر بحاجة إلى إثبات ولم نر هؤلاء الأعلام وقفوا عند هذه النقطة وثبتوها أولاً، ثم فرعوا عليها أن الآية نازلة في شأن أهل الكتاب، وخاصة إن زمن نزولها في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وانتصاراته الكثيرة والمتكررة على أعدائه وبسط نفوذه لا يدع مجالاً لتصور أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان بحاجة إلى عصمة من هؤلاء ويتردد في إبلاغ شيء عائد لهم، وقد أبلغ قبلها ما هو أشد عليهم، وقبلهم ما هو أشد على مشركي قريش وهم أشد وطاة وأسفك للدماء، ويشهد على ذلك حروبهم ضد النبي صلى الله عليه وآله.

وإن كان لهؤلاء الأعلام عذر في السياق فلا نجد عذراً لأبي السعود العمادي وهو مفسر ومُفتٍ، فقد قسم ما ينزل إلى الرسول صلى الله عليه وآله إلى

(١) الوسيط/ ج٤/ ٢٢٤.

ما يجب تبليغه وما لا يجب «بلغ ما أنزل إليك» أي جميع ما أنزل إليك من الأحكام وما يتعلق بها كائنا ما كان...«فما بلغت رسالته» فإن ما لا يتعلق به الأحكام أصلاً من الأسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه إلى الناس»[1]، ولم نر حتى إشارة في الآية الكريمة إلى هذين القسمين.

وقفة مع الآلوسي:

حمل الطيبي ما ورد عن أبي هريرة «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»[2]، على الأسرار الإلهية التي لا يتحملها الناس بحيث يقتلون قائلها، وقد رفض الآلوسي هذا التوجيه «وحمل وعاء ابي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي لم يبثه على علم الأسرار غير متعين لجواز أن يكون المراد منه أخبار الفتن وأشراط الساعة وما أخبر به الرسول ﷺ من فساد الدين على أيدي أغيلمةٍ من سفهاء قريش، وقد كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت، أو المراد الأحاديث التي فيها تعيين أسماء أمراء الجور وأحوالهم وذمهم، وقد كان رضي الله تعالى عنه يكني عن بعض ذلك ولا يصرح خوفاً على نفسه بقوله أعوذ بالله

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦٧/٢.

(٢) صحيح البخاري ٦٥/١.

سبحانه من رأس ستين وإمارة الصبيان يشير إلى خلافة يزيد الطريد لعنه الله تعالى على رغم أنف أوليائه لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب الله تعالى دعاء أبي هريرة رضي الله تعالى عليه فمات قبلها بسنة»[1].

وهذه من حسنات الآلوسي وكم فرق بينها وبين ما مر عن ابن تيمية حيث يرمى با لجهل من قال إن أهل البيت هم الأئمة الاثنى عشر المبشر بهم في التوراة، ويعدد اثني عشر غيرهم بينهم معاوية ويزيد، وحسنة أخرى لهذا المفسر أنه يذكر حديث غدير خم في تفسير آية الإبلاغ من ضمن أقل القليل الذين ذكروا ذلك، لكنهم كلهم يقولون إنها نزلت في فضل علي لا في خلافة علي وكم فرق بين الاثنين ويستبعد أن تكون الآية كما ترى الشيعة الإمامية «لأن التخوف الذي تزعمه الشيعة منه ﷺ - وحاشاه في تبليغ أمر الخلافة - إنما هو من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، حيث أن فيهم - معاذ الله تعالى - من يطمع فيها لنفسه ، ومتى رأى حرمانه منها لم يبعد منه قصد الإضرار برسول الله ﷺ، والتزام القول - والعياذ بالله عز وجل - بكفر من عرضوا بنسبة الطمع في الخلافة إليه مما يلزمه محاذير كلية أهونها تفسيق الأمير كرم الله تعالى وجهه وهو هو، أو نسبة ا لجبن إليه - وهو أسد الله تعالى الغالب - أو الحكم عليه بالتقية - وهو الذي لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم ولا يخشى إلا الله سبحانه - أو نسبة فعل

(١) روح المعاني ٦٥/٥.

الرسول الله ﷺ ، بل الأمر الإلهي إلى العبث»[1].

فنرى هذا النص من الآلوسي يورد أمورا يعتبرها أدلة على كون الآية في فضله لا في خلافته، وأول تلك الأمور استبعاده أن يتخوف الرسول ﷺ من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ونحن نقول من الاستحالة أن يكون تخوف الرسول ﷺ من أصحابه المرضيين عند الله سبحانه، بل نقول بقول القرآن حيث يذكر أن هناك منافقين بين الصحابة وبعضهم غير معروف النفاق عند الناس، بل معروفين بطول صحبتهم وجهادهم بين يدي الرسول الأكرم ﷺ وقتلهم يؤدي إلى تداعيات خطيرة، وهذا ما نقله الآلوسي نفسه في تفسيره «أخرج البيهقي من الدلائل عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق وأنا أسوق وعمار يقود حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله كانوا متلثمين ولكن قد عرفنا الركاب، قال: هؤلاء المنافقين إلى يوم القيامة هل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا، قال: أرادوا أن يزلوا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها، قلنا: يا رسول الله أولا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: أكره أن يتحدث العرب عنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قاتل

(١) روح المعاني ٣/٧٣.

بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم... »[1].

والملاحظ إن هؤلاء الاثني عشر هم من المقربين للرسول الأكرم ﷺ بدلالة معرفة حذيفة وعمار ركابهم، فأين ذهب هؤلاء وغيرهم من أمثالهم بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، وقد عاش حذيفة وقد اختص بأسرار النفاق تلك الفترة فكان يصفها «إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ كانوا يسرون واليوم يجهرون»[2]، أما نسبة فعل الله وفعل رسوله إلى العبث فلا نفهم له وجهاً فالله سبحانه يحكم ورسوله ﷺ يبلغ وعلى المكلفين إن يطبقوا ما أمروا به وينتهوا عما نهوا عنه اختياراً لا جبراً.. هذه سنة الله سبحانه وتعالى فأين العبث إذا حكم الله وبلّغ رسوله ولم يطبق بعض الناس، والناس تتحمل تبعات تطبيق «حكم الله» وتتحمل تبعات عدم التطبيق فأين العبث؟ أما الأمور الثلاثة التي يدور عليها افتراض حال أمير المؤمنين عليه السلام بين الفسق وا لجبن والتقية، فأمير المؤمنين عليه السلام أجل من أن ندخله في مناقشة لدفع الأمرين الأولين، أما التقية فإن كانت هي وظيفة الإمام عليه السلام وتكليفه الشرعي فما العيب في ذلك؟ وما المحذور من ذلك؟ وبالخصوص إذا علمنا أن الرسول الأكرم ﷺ شبّه منزلة أمير المؤمنين عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى، وقد أخلف موسى هارون عليه السلام على قومه لكن قومه لم يتبعوا الخليفة الشرعي بل اتبعوا غيره، وقد اعتذر هارون ﷺ عن

(١) روح المعاني ٧/٢٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٦/٦٠٤.

موقفه «وهو موقف يشبه موقف أمير المؤمنين عليه السلام» مما حكاه القرآن عنه وقد فسره الآلوسي «وحاصل اعتذاره عليه السلام أني رأيت الإصلاح في حفظ الدماء والمداراة معهم وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم ولا يكون سببا للومك إياي إلى أن ترجع إليهم، فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لا سيما والقوم قد استضعفوني وقربوا من أن يقتلون كما أفصح عليه السلام بذلك في آية أخرى»[1]،

وقد قال في تفسير هذه الآية الأخرى «إن القوم الذين فعلوا ما فعلوا «استضعفوني» أي استذلوني وقهروني ولم يبالوا بي لقلة أنصاري «وكادوا يقتلوني» وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك والمراد أنني بذلت وسعي في كفهم ولم آلُ جهداً في منعهم»[2]، ولا يسعنا التصديق أن الآلوسي بهذه الكلمات في مقام ذم هارون عليه السلام أو توصيفه بأحد تلك الصفتين فليكن هارون هذه الأمة مثل هارون تلك الأمة وقد شبه هذا الهارون بذلك الهارون من لا ينطق عن الهوى، والأقرب أن تكون مثل هذه الكلمات هي في مقام ذم من ترك هارون عليه السلام واتبع غيره، ولم يكتف بذلك بل أراد قتله وخذلانه وقهره، ولا نعتقد أن الآلوسي يقصد ذم أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال ما قال لمجرد إلزام خصمه بذلك وهو القائل: «وذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله تعالى وجهه، فقد أخرج ابن مردويه عن

(١) روح المعاني ٢٥٢/١٢.

(٢) روح المعاني ٣٧٢/٦.

ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغضهم علي بن أبي طالب، وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده، وعندي أن بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق»[1].

لكنا على كل حال لا نوافقه أن الآية نزلت في فضل علي لا في خلافته ونقول له ماقاله السيد عبد الحسين شرف الدين مخاطباً شيخ الأزهر «ولمَ خصه بهذه الدعوات التي لا يليق لها إلا أئمة الحق، وخلفاء الصدق، ولماذا أشهدهم من قبل، فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: بلى فقال: من كنت مولاه، فعلي مولاه، أو من كنت وليه ، فعلي وليه، ولماذا قرن العترة بالكتاب؟ وجعلها قدوة لأولي الألباب إلى يوم الحساب؟ وفيم هذا الاهتمام العظيم من هذا النبي الحكيم؟ وما المهمة التي احتاجت إلى هذه المقدمات كلها؟ وما الغاية التي توخاها في هذا الموقف المشهود؟ وما الشيء الذي أمره الله تعالى بتبليغه إذ قال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

وأي مهمة استوجبت من الله هذا التأكيد؟ واقتضت الحض على تبليغها بما يشبه التهديد؟ وأي أمر يخشى النبي الفتنة

(١) روح المعاني ١٦٢/١٩..

بتبليغه؟ ويحتاج إلى عصمة الله من أذى المنافقين ببيانه؟»[1]، ونوافق الآلوسي تمام الموافقة على أن بغض عليّ عليه السلام من أقوى علامات النفاق، فأينما يوجد هذا البغض فلا يفارقه النفاق، وهذه القاعدة غير قابلة للاستثناء سواء أكان المبغض معاصراً لرسول الله صلى الله عليه وآله أم لم يكن كذلك.. وهؤلاء المنافقين قد وصفهم القرآن في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[2]

ومن الغريب أن يوجد شبه إجماع بين مفسري جمهور المسلمين على إبعادهم عن الآية وتفسير «إن الله لا يهدي القوم الكافرين» بمعنى الكفار العلنيين دون المستترين به وكل حجتهم هو السياق «يبدو من السياق قبل هذا النداء وبعده إن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بما هم عليه ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء»[3].

(١) المراجعات ١٩٩.

(٢) النساء/آية ٦١.

(٣) في ظلال القرآن ٢/٣٩٤.

وقفة مع ابن عاشور:

الغريب أن يصل ابن عاشور إلى نفس النتيجة رغم أنه تنبه إلى خطر اليهود والمنافقين فقال عنهما «الفريقان متظاهران على الرسول صلى الله عليه وآله فريق متجاهر وفريق متستر، فعاد الخطاب للرسول ثانية يثبت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار إذ كانت هذه السورة في آخر مدة النبي صلى الله عليه وآله، لأن الله دائم على عصمته من أعدائه، وهم الذين هون أمرهم في قوله «ياأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» فهم المعنيون من الناس في هذه الآية فالمأمور بتبليغه بعض خاص من القرآن»[1]، ثم رجع ليقول أنها نزلت في شأن أهل الكتاب وغيّب المنافقين في هذا الشأن، بينما شدد الله أمر المنافقين وقدّمهم على اليهود في هذه الآية التي استشهد بها وأسمى الاثنين في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

وقد قلنا سابقاً إن زمن نزول الآية وهذا ما أكده ابن عاشور نفسه أنها كانت من آخر القرآن نزولاً إن لم تكن آخرها فعلا، وفي هذا الزمن كان أهل الكتاب قد كسرت شوكتهم وتفرقوا تفريقاً لا يخاف منهم شيء على الرسول صلى الله عليه وآله والرسالة، وقد نقلنا قول

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٤١.

حذيفة في المنافقين بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولا نتصور أن هؤلاء المنافقين نبتوا فجأةً بعد الوفاة، لكنهم كانوا موجودين بالساحة واختلفت حركتهم في الزمنين، إنهم في الزمن الأول يسِرّون، وفي الزمن الثاني يعلنون، مع ذلك لم يلتفت أحدٌ من مفسري جمهور المسلمين إلى هذا الخطر.

وأخيراً:

تبين للقارئ الكريم بعد هذا الاستعراض أن رأي مفسري جمهور المسلمين يمكن إجماله بما يلي:

١- التغاضي عما ورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

٢- التغاضي عما ورد في كتب علماء مدرسة الصحابة من نزول الآية في غدير خم.

٣- القلة التي اعترفت بنزولها في غدير خم قالوا أنها نزلت في فضل علي لا في خلافته وأغرقوها بالاحتمالات الأخرى.

٤- الاعتماد على السياق من دون إثبات أن هذا السياق ثابت نزولاً مع أن الروايات تدل على نزولها وحدها.

٥- الاعتماد على من ليس قوله حجة بل الاعتماد على «قيل ويقال» وهي أقوال لا يُعرف صاحبها.

٦- في كثير من الآراء عدم الالتفات إلى زمان نزول الآية آخر عهد الرسول ﷺ.

٧- في كثير من الآراء تسليط الضوء على عصمة الله لنبيه من أعدائه وعدم الالتفات إلى ربط صدر الآية بهذه العصمة وكأن هذا المقطع نزل لوحده.

٨- أكثر الآراء تقول إنما نزل إليه هو كل الشرائع وهذا يعني أنه لحد لحظة نزول الآية لم يبلغ شيئاً!!.

٩- احتار المفسرون با لجملة الشرطية «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»، لأن اختيارهم لمعنى «ما أنزل إليك من ربك» هو أصل الدين أو كله مما ينتج كلاماً لا معنى له، أي (إن لم تبلغ رسالة ربك فما بلغت رسالات ربك).

١٠- التنافي والتضاد بين آراء مفسري جمهور المسلمين في تفسير هذه الآية وذلك لعدم ركونهم إلى ركن وثيق.

وللقارئ الكريم حرية الاختيار بين هذا التفسير وذلك التفسير الذي يعتمد على أقوال أهل البيت عليهم السلام وهم عِدل القرآن ويعضد ذلك ثلاثين من أعلام مدرسة الصحابة ذكروا ذلك في كتبهم وهذا التفسير «يعتمد على الحجة التي نصبها رسول الله ﷺ بأمر الله

سبحانه على العباد»، أورث إجماع مفسري أتباع أهل البيت عليهم السلام على نزولها في خلافة علي عليه السلام مع الحفاظ على اتصال صدر الآية بآخرها أولاً، والحفاظ على زمن نزول الآية ثانياً، وهذا التفسير لا يعاني مما عانى منه ذلك التفسير.

نسأل الله سبحانه

«أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه».

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الغر الميامين.

الفهرس

المقدمة ٣
مع علماء الإمامية ٥
نماذج من مفسري مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٨
نموذج أول ٨
نموذج ثانٍ ١٠
نموذج ثالث ١٢
نموذج رابع ١٣
نتائج ١٧
خصائص وآثار (ما أنزل الله) في القرآن ١٩
آراء أخرى ٣٢
محاكمة الآراء ٣٧
ملاحظتان ٤٠
وقفة مع الآلوسي ٤٥
وقفة مع ابن عاشور ٥٢
وأخيراً ٥٣

إن الحديث عن واقعة الغدير هو حديث عن أهم منعطف تأريخي مرت به المسيرة الإسلامية، حيث أعطى النبي ﷺ وسلم زمام الأمور في الدين والدنيا إلى وصيه المرتضى، وذلك بعد أن جمع الناس في حر الهجير وأشهدهم على أنفسهم بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة والنصح لأمته، فأقروا بذلك، ثم نادى فيهم بصرخة الحق والهدى (من كنت مولاه فعلي مولاه) تلك الصرخة التي لا يزال دويها يرن في أسماع أهل الحق، وسيبقى حتى الورود عليه في الحوض، فيفوز الفائزون بولايته.

انه عيد الله الأكبر الذي عرف عند أهل السماء بيوم العهد المعهود وفي الأرض يوم الميثاق المأخوذ، وقد جاء عن الإمام الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يوم غدير خم أفضل أعياد أمتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي علي بن أبي طالب علما لأمتي، يهتدون به من بعدي، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين، وأتم على أمتي فيه النعمة، ورضي لهم الإسلام دينا.